﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ٣﴾ [إبراهيم: 3]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعْدَ ذكْرِ العَذابِ الشَّديدِ يَحسُنُ ذِكْـرُ أسبابِه لاجْتِنابِها

بعدَ أن تَوَعَّد الله ﷻ مَن كفرَ منَ المَدْعوّين إلى الدّين بالويلِ الشّديدِ فصّلَ هنا مظاهرَ ذلك الكُفرِ التي أدّت بهم إلى ذلك الويلِ والعذابِ الشّديدِ، فعدَّد ﷻ في هذه الآية ثلاثةَ أسبابٍ، كلٌّ منها أشنعُ منَ الآخَرَيْن، هي إيثارُهمُ الكفرَ على الإيمانِ. وعُزوفُهم عن دين الله ﷻ، وتصَدّيهم للمؤمنين به، ومحاولةُ صرْفِهم عنه، ومحاولتُهم تشويهَ الدّين، وإبرازُه في صورة المختلِّ الأعوجِ، أي: "لمّا أشارَ إلى ما للكافرين، وصَفَهم بما عاقَهُم عن قَبولِ الخيرِ وتركَهم في أودية الشّرِّ؛ فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ﴾"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسۡتَحِبُّونَ﴾: "أحبَبْته نَقيضُ أبغضتُه، والحبُّ والحِبّةُ بمنزلة الحبيبِ والحبيبةِ"[2]، و"﴿يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: يُؤثِرونَها، ومنه قولُه تعالى: ﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾"[3]، و"استحبَّ يَستحِبُّ، اسْتَحْبِبْ، اسْتَحَبَّ، استحبابًا، فهو مُسْتَحِبٌّ، والمفعول مُسْتَحَبٌّ، استحبَّ الشَّيءَ: قبِله، وفضَّله واستحْسَنه، وآثره، استحبَّ الشِّعْرَ على القصَّة: واختاره، أحبَّه أكثرَ منها وفضّلَه عليها ... وهو ما رغَّب فيه الشّارع ولم يوجبْه، عكسُ مكروه: أمرٌ مُستحبّ"[4]. ومن معاني ﴿يَسۡتَحِبُّونَ﴾ في الآية: "يَعتاضون ويَستبدلون، وقيل:

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 10/373.
(2) الخليل، العين: (حبب).
(3) الهروي، الغريبين في القرآن والحديث: (حبب).
(4) مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (حبب).

يَختارون"[1]، و"يؤثرون شهواتِ الدّنيا على الآخرة ونعيمِها"[2]. فمادّةُ الاستحبابِ تدورُ حول معاني الاستحسانِ، والإيثارِ، والقَبولِ، والتَّفضيلِ، والاختيارِ، وذلك كلُّه واقعٌ منَ الكفّار بالنّسبة للكفرِ دونَ الإيمان.

2) ﴿وَيَصُدُّونَ﴾: "صَدَّ عنه يَصِدُّ صُدوداً: أعرضَ، وصدَّه عنِ الأمر صَدًّا: مَنَعَهُ وصَرَفَه عنه، وأصَدَّهُ لغةٌ"[3] و"الصَّدّ: الصَّرفُ والمنْعُ، يُقالُ صَدَّهُ، وأصَدَّهُ، وصَدَّ عَنْهُ. والصَّدّ: الهجْران، ومِنْهُ الحَديثُ «فيَصُدُّ هَذا ويَصُدُّ هَذا»[4]، أيْ: يُعْرِض بِوَجْهِهِ عَنْهُ. والصَّدُّ: الجانِبُ"[5]، فمادّة (صدَّ) تدور حول معاني الإعراضِ، والمنعِ، والصّرفِ، والهجرانِ، والضَّجيجِ، والجلبةِ، والصّياحِ، وكلُّ ذلك يقعُ منَ الكفّار الذين يَستحبّون الكفرَ على الإيمانِ، والعياذُ باللّه من حال أهلِ النّارِ.

3) ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾: البِغْيةُ: نقيضُ الرِّشْدة، وبَغَيْتُ الشّيء أبغيه بُغاء، وابتغيتُه: طلبتُه[6]. فـ"الباء والغين والياء أصلان: أحدُهما طلبُ الشّيء، والثّاني جنْسٌ منَ الفسادِ، فمنَ الأوّلِ بغيتُ الشّيء أبغيه: إذا طلبتُه"[7]. وهو: طلبُ تجاوزِ الاقتصادِ فيما يتحرّى، تجاوزَه أم لم يتجاوزْه، فتارةً يعتبرُ في القدر الذي هو الكمّيةُ، وتارةً يُعتبرُ في الوصف الذي هو الكيفيّةُ، يقال: بَغَيْتُ الشّيء: إذا طلبتَ أكثرَ ما يجبُ، وابْتَغَيْتُ كذلك، قال اللّه ﷻ: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: 48]، وقال تعالى: ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: 47]. والبَغْيُ على ضَربين: أحدُهما محمودٌ، وهو تجاوزُ العدل إلى الإحسانِ، والفرضِ إلى التّطوّع، والثّاني مذمومٌ، وهو تجاوزُ الحقِّ إلى الباطل[8]. ومعنى ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ في الآية: يَطلبون لها، ويطلبونَها راغِبين مُلحِفين[9].

(1) الغزنوي، باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن: 2/758.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/512.
(3) الجوهري، الصحاح: (صدد).
(4) البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (6237).
(5) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: (صدد).
(6) الخليل، العين: (بغي).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بغي).
(8) الراغب، المفردات: (بغي).
(9) الزمخشري، الكشاف: 1/392، أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/3984.

4) ﴿عِوَجًا﴾: العين والواو والجيم أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على ميلٍ في الشّيء[1]، و"العَوَج والعِوَج: خلافُ الاستقامَة، وهي بِكَسْر العين فيما لا شخصَ له منَ الدّين والأمرِ والأرْض ونَحْوها. وهو بِفَتْح العين في كلّ مُنتصِبٍ كالحائطِ والعودِ والشَّجر، والعَوْجاء: تَأْنيث أعْوَج، والمِلَّةُ العوجاء: ما كانَ أهلُ الجاهلية عليه من عبادَةِ الأصْنام وجحْدِ التَّوْحيد، ولا عِوَجَ أشدُّ من هذا"[2]. ومعنى ﴿عِوَجًا﴾ في الآية: مُعْوجّةً غيرَ مُستقيمةٍ، وناكبةً عنِ الطّريق غيرَ سالكةٍ سواءَ السّبيلِ، ويبغونها زيفًا[3].

فالذين يَستَحِبّون الكفرَ على الإيمانِ يُحاولون تحريفَ الدّين، ويَطلُبون اعوجاجَه، ويَتطلّعون إلى إخراجِه عنِ استقامتِه ومزاياه وفضائلِه التي لا حدودَ لها.

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

رُؤوسُ الكُفرِ هم من قَدَّموا الفانيةَ على الباقيةِ وصَدّوا عن سَبيلِ الله بإرادَتِها مُعْوجَّةً

كشفَتِ الآيةُ صِفاتِ الكافرين الذين استحَقّوا العذابَ الشَّديدَ، وهي استحبابُ الحياة الدُّنيا الفانيةِ وتقديمُها على الآخرةِ الباقيةِ، وصدُّ النّاسِ عن سبيل الله تعالى، وإرادةُ السّبيلِ مُعوجَّةً عنِ الحقِّ لموافقةِ أهوائِهم ومُتابعةِ شهواتِهم، وهذه الصِّفاتُ هي التي ثبّتتِ الكفرَ في قلوبِهم وزرعتِ الباطلَ في صدورِهم، فإذا استجمعَ شخصٌ هذه الصّفاتِ في قلبِه وعقلِه فإنَّه رأسٌ من رؤوس الباطلِ، وسهمٌ من سهام إبليسَ، ولذلك أخبر الله عنهم أنَّهم في ضلالٍ بعيدٍ، أي أنَّهم في بعدٍ عنِ الحقِّ لا يستطيعون معه الاقترابَ من نورِ الإيمانِ، ولا ضياءِ الإسلام.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

الضَّلالُ البعيدُ نتيجةٌ طبيعيَّةٌ لصِفاتِ الكافرين الرّاسخةِ فيهم

إعراب الاسمِ الموصول:

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ﴾ بالنَّظَرِ للسّابقِ إمّا أن يكونَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عوج).
(2) الحميدي، تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم، الحديث رقم: (431).
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/3984.

بدلًا من ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: "الذين يختارون الحياةَ الدّنيا ومتاعَها ومعاصيَ الله فيها، على طاعةِ الله وما يُقَرِّبُهم إلى رضاه منَ الأعمال النّافعةِ في الآخرة"[1]، وإمّا أن "يكونَ مجرورًا صفةً للكافرين، أو منصوبًا على الذّمّ، أو مرفوعًا على: أعني الذين يَستحبّون، أو: هم الذين يستحبّون"[2].

وبالنَّظر إلى ما بعدَه فهو مبتدأ خبرُه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾، ولا تُعارِضُ هذه الأعاريبُ كوْنَ الذين كفروا هذه صفاتُهم، فهي أوجهٌ صناعيَّةٌ، ومآلُها إلى أنَّ الكافرين اتَّصفوا بهذه الصّفات، سواءٌ على القول بالبدلِ أم النّعتِ أم تقديرِ محذوفٍ، أو بإعرابها مبتدأً فإنَّ الخبرَ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ لا يَخلو من عودته إلى الكافرين، فالمعنى الجامعُ لهؤلاءِ هو أنَّ الكافرين قدِ اتَّصفوا بهذه الصّفاتِ، ولذلك فهم في ضلالٍ بعيدٍ.

بَلاغةُ اسْتِعمالِ المَوصولِ الجَمْعيِّ:

أومأ المَوصولُ إلى ذمٍّ خاصٍّ لَحِقَ الكافرين

الاسْمُ الموصولُ عنصرٌ من عناصر التّشويق؛ بوصْفِه مُبهَمًا فقيرَ الدّلالةِ، ثمّ هو إلى ذلك يومئُ إلى وجه بناءِ الخبر، ثم هو من بين عناصرِ التَّعريفِ يُفسِحُ الأسلوبَ لِذكرِ دلالاتٍ متكاثفةٍ تتآزرُ على خدمةِ المعنى، وتُسْهِمُ في تحقيق الغرَضِ، وقد هيّأ الموصولُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ﴾ لِذكْرِ المضارع ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾، ولذكرِ ﴿ٱلْحَيَوٰةَ﴾ وتعريفِها ووصْفِها بـ ﴿ٱلدُّنْيَا﴾، وما وراء ذلك من حشْدِ القيودِ المُتَمِّمَةِ، فكلُّ ذلك تَوَفَّرَ بسببٍ منَ المَوصول، ثمّ إنَّ المعنى هنا يأبى أن تُذكَرَ الأعلامُ المحدِّدَةُ لآحاد الكافرين؛ فكان التَّعبيرُ بالموصول هو السّبيلُ الأنسَبُ.

كما أنَّ التَّعبيرَ بالمَوصولِ يومئُ إلى نوعِ اختصاصٍ، فالكافرون

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/514.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/537.

الذين يَستحبّون الحياةَ الدُّنيا على الآخرة، ويَصدّون عن سبيلِ الله ويبغونَها عوجًا همُ المَذمومون بخالصِ الذَّمِّ، وهو اختصاصٌ إضافيٌّ لا حقيقيٌّ، قُصِدَ منه المُبالغةُ في التَّشنيعِ عليهم، وهذا التَّوجيهُ أبينُ على إعرابِ المَوصولِ تابعًا للكافرين.

غرَضُ صيغةِ المضارعِ ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾:

المضارعةُ في قوله تعالى: ﴿يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ تُترجمُ متابعةَ الكفّار حُبَّ الدّنيا، وتَجديدَهم التّعلُّقَ بها، والاستحبابَ لها، وإيثارَها، واختيارَها على الآخرة، والتّزوُّدَ منها حِلًّا كانت أو حُرمةً؛ فلا يَشبعون منها مهما اغترفوا، ولا يُراجعون أنفسَهم مهما طالت بهمُ الحياةُ فيَعترفوا بفسادِ عقائدِهم، وخطورةِ وجهتِهم التي يَؤُمّون طريقَها، وفي الحديث الشريف: «إنَّ هذا المالَ خَضِرٌ حُلْوٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخاوَةِ نَفْسٍ، بورِكَ له فيه ومَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرافِ نَفْسٍ، لَم يُبارَكْ له فيه، وكانَ كالَّذي يَأْكُلُ ولا يَشْبَعُ»[1].

اسْتِحبابُ الدُّنيا حالةٌ لازمةٌ لمن غَرِقَ في بئْرِ الشَّهَواتِ

معنَى السّين والتّاء في قولِه: ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾:

فعْلُ الحُبِّ المعتادِ هو (يُحبّون)، وهذا حينما يكونُ في حدودِ المعقولِ، أوِ المُتَصَوَّرِ المُمكنِ، أمّا الفعلُ ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾ فيُترجمُ عن تكلّفِ الحبِّ الشّديدِ، والتّعلُّقِ الذي يزيدُ عنِ الحدِّ المُنضبطِ، والمعيارِ المُتَّفقِ، فالسّين والتّاء من حروف الطّلبِ كما في قولنا: نَستغفرُ اللّه العظيمَ أي نطلبُ غفرانَه، وعلى ذلك فالسّين والتّاء في ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾ يَحكيان شدّةَ كَلَفِ الكافرين بالدّنيا، إلى درجةِ إيثارِها على ما عندَ اللّه تعالى منَ النّعيمِ المقيمِ في الآخرة، وذلك من علّةِ الوَيلِ، فالاستحبابُ "استفعالٌ منَ المحبّة؛ لأنّ المُؤْثِرَ للشّيء على غيره كأنّه يطلبُ من نفسه أن يكونَ أحبَّ إليها وأفضلَ عندها منَ الآخر"[2].

الحُبُّ الطبيعيُّ فِطرةٌ، والاستِحبابُ تكلُّفٌ

(1) البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (2750).
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/537.

وهذا يُستفادُ منه أوّلًا الرّغبةُ الشّديدةُ في الحياة بمعنى اللّجاجةِ في طلبِها، ويُستفادُ منه أنّه يختارُها على الحياة الدّنيا، ويتركُ الآخرة تركًا، كما يُتركُ كلُّ مهجورٍ[1]. ويجوزُ أن يكونَ استفعلَ بمعنى أفعل، أي: أحبّوا، كاسْتَجاب وأجابَ[2].

والإنسانُ قد يحبُّ الشّيءَ ولكنه لا يحبُّ كونَه مُحبًّا لذلك الشّيءِ، مثلُ من يميلُ طبعُه إلى الفسقِ والفجورِ ولكنّه يكرهُ كونَه مُحبًّا لهما، أمّا إذا أحبَّ الشّيءَ وطلبَ كونَه مُحبًّا له، وأحبَّ تلك المحبّةَ فهذا هو نهايةُ المحبّةِ، فقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ يدلُّ على كونِهم في نهاية المحبّةِ للحياة الدّنيويّةِ، ولا يكونُ الإنسانُ كذلك إلّا إذا كان غافلًا عنِ الحياةِ الأخرويّةِ، وعن معايبِ هذه الحياةِ العاجلةِ، ومن كان كذلك كان في نهاية الصّفاتِ المذمومةِ، وذلك لأنَّ هذه الحياةَ موصوفةٌ بأنواعٍ كثيرةٍ منَ العيوب[3].

المعنَى المجازيُّ في اسْتِعمالِ (المحبّةِ):

"المحبّةُ مجازٌ مرسَلٌ عنِ الاختيار والإيثارِ بعلاقة اللّزوم في الجملةِ، فلا يضُرُّ وجودُ أحدِهما بدون الآخرِ كاختيارِ المريض الدّواءَ المُرَّ لِنَفْعِه، وترْكِ ما يُحبُّه ويَشتهيه منَ الأطعمةِ اللّذيذةِ لِضَرَرِه"[4]، ومن معاني ﴿يَسۡتَحِبُّونَ﴾ كذلك "يَعْتاضون ويَسْتَبدلون، وقيل: يَخْتارون"[5]، و"يُؤثرون شَهواتِ الدّنيا على الآخرة ونعيمِها"[6].

يَلزمُ عنِ المَحبّةِ اختيارُ المَحبوبِ وإيثارُه على نقائِضِه

بَلاغةُ التَّضْمينِ في الفعلِ ﴿يَسۡتَحِبُّونَ﴾:

إيثارُ النّظم الكريم حرفَ الاستعلاءِ ﴿عَلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ يتيحُ للفعلِ ﴿يَسۡتَحِبُّونَ﴾

اخْتيارُ حُروفٍ لأفعالٍ غيرِ مَخْصوصةٍ بها دَليلُ البلاغةِ ومِعيارُ البَراعةِ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/3983 - 3984.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/407.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/60.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 7/174.
(5) الغزنوي، باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن: 2/758.
(6) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/512.

أن يتضَّمنَ معانيَ أفعالٍ أخرى فضلًا عن معناه الأصليِّ، من تلك الأفعال: (يُفضِّلون، ويُؤْثرون، ويَختارون، ويَرفعون، ونحوُها)، فالكافرون يَستحبّون الحياةَ الدّنيا مُفضّلينَها ومُؤْثرينَها على الحياةِ الآخرةِ، ولا يُعطي هذه الدّلالةَ التَّعبيرُ بكلمةٍ أخرى كأنْ يُقال: يَستحبّون الحياةَ الدنيا دونَ الآخرةِ.

والذي حقَّقَ التَّضمينَ وهيّأ له تَعْديةُ فعْلِ الاستحبابِ بحرفِ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾؛ لأنَّ الاستحبابَ يَتعدَّى بنفسِه؛ فلمّا جاءت ﴿عَلَىٰ﴾ دلَّ مَجيئُها على إرادة التَّضمين، والتّقديرُ: "يَستحبّون الحياةَ الدنيا ويُؤثرونَها على الآخرة، فجمعَ تعالى بين هذين الوصْفَين ليتبيّن بذلك أنَّ الاسْتِحبابَ للدّنيا وحدَه لا يكونُ مذمومًا إلّا بعد أن يُضافَ إليه إيثارُها على الآخرةِ، فأمّا من أحبَّها ليصلَ بها إلى منافعِ النّفسِ وإلى خيرات الآخرةِ فإنَّ ذلك لا يكونُ مذمومًا حتى إذا آثرَها على آخرتِه بأنِ اختار منها ما يضرُّه في آخرته فهذه المحبّةُ هي المحبّةُ المذمومةُ"[1].

بَلاغةُ تعريفِ ﴿ٱلْحَيَوٰةَ﴾:

الحَياةُ قبْرٌ عَميقٌ من رتعَ فيه وقَعَ فيه

تعريفُ ﴿ٱلْحَيَوٰةَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ بأداة الاستغراقِ والاستيعابِ (أل) يوحي بجشَعِ الكافرين، وتطلُّعِهم واسْتِمْساكِهم بكلِّ ما يُمكنُ أن يجمَعوه منها من مالٍ وولدٍ وجاهٍ وغيرِها، ويُقرّرُ إيثارَهم إيّاها على رضوانِ اللّه تعالى. وفي تعريف ﴿ٱلْحَيَوٰةَ﴾ في هذا السّياقِ إشارةٌ إلى حقارتِها، وإلى مضرَّتِها على مُتعَشِّقيها، ويُترجمُ عن نَهَم طموحِهم فيها، وكأنّها كلُّ شيءٍ، وكأنّها نهايةُ كلِّ طموحٍ على الإجمال، حتى صاروا لا يُشبعُهم شيءٌ مهما تزوّدوا منها، وفي الحديث الشريف: «لَوْ كانَ لِابْنِ آدَمَ واديانِ مِنْ مالٍ لابْتَغَى ثالِثًا، ولا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إلّا التُّرابُ، ويَتوبُ اللّه على مَنْ تابَ»[2].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/61.
(2) البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (6436).

دَلالةُ تَركيبِ ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾:

الكافِرُ مُستغرِقٌ في مَلذّاتِ الحَياة الدُّنيا

يردُ هذا التّركيبُ في القرآن الكريم عندما يريدُ الله تعالى أنْ يصوّرَ اسْتغراقَ الإنسان في هذه الحياة، وعدمَ عنايتِه بما بعدَها، واغترارَه بأهوائِها وشهواتِها، وكأنّها هي الحياةُ الأبديّةُ[1].

بَلاغةُ الاكتفاءِ في ذكْرِ الموصوفِ:

خـوطِـبَ الـكـافِـرون بما يَستحِبّون منَ الحياةِ الدُّنيا وطَيّ ما يَكرَهون مـنَ الـحـيـاةِ الآخرةِ

وصَفَ النّظمُ الكريمُ ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ﴾ بـ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ فكشفَ عن أنّها منَ القِصَر والدُّنوِّ والدّناءةِ والحَقارةِ - إذا أُخِذتْ مِن غير حلِّها، وأُنفِقَتْ في غير حقِّها - بمكانٍ، وبهذا الوصْفِ تبدو المفارقةُ الكبيرةُ والعجيبةُ بين حقارةِ ما يُؤثِرون، وبين عظمةِ ما يدْعوهم إليه الرّسولُ ﷺ من توحيدِ الرّبِّ العظيمِ الذي أنزلَ لهدايتِهم الكتابَ ﷻ، وما يَستلزمُه ذلك من حياةٍ هانئةٍ راقيةٍ سعيدةٍ، وآخرةٍ باقيةٍ أبديّةٍ سعيدةٍ.

ومُقتضى الجمْعِ بين الحياة الدّنيا والآخرةِ تحقيقُ الطِّباقِ على الوجْهِ الآتي: (الذين يَستحبّون الحياةَ الدّنيا على الحياةِ الآخرةِ)، لكنَّ النّظمَ الكريمَ اكتفَى في الطرف الثاني بالوصْفِ ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ دونَ الموصوفِ (الحياة)؛ وذلك لأنَّ الكفّارَ لا يَعتقدون أصلًا في وجود حياةٍ آخرةٍ؛ فطواها الذّكرُ الحكيمُ في تعبيرٍ دقيقٍ عن مُعتقدِهم الضّالِّ؛ فتآزرتْ خصائصُ التّراكيبِ على بيانِ ضلالِهم البعيدِ.

ثمّ إنَّ ذكرَ الحياةِ وحذفَها في المقابلِ يوحي بأنَّ القومَ حريصون على الحياةِ بمفهومِها البهيميِّ الحيوانيِّ، أمّا الآخرةُ فهي ليست حياةً بهيميَّةً، بل هي دارُ رضوانٍ وكرامةٍ وتشريفٍ للمؤمنين.

معنَى التَّعريفِ في ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

المُـرادُ بـالآخـرةِ هنا نعيمُ الجنَّةِ دونَ النّارِ

تعريفُ ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ وإن كان قد حُذِف موصوفُه اتّساقًا مع مُعْتقَدِ

(1) أبو عودة، التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم: 349 - 350.

الكفّارِ المنكِرِ لوجودِه أصلًا، لمِّح إلى أنَّ الدّارَ الآخرةَ هي الحياةُ الحقيقيّةُ، بل هي الدّارُ الحيوانُ، دارُ النّعيم الكاملِ الذي لا ينفدُ ولا يزولُ ولا يحولُ، والآخرةُ يدخلُ فيها الجنَّةُ والنّارُ، لكنَّ دلالةَ النَّظمِ أومأت إلى أنَّ المرادَ بالآخرةِ هنا خصوصُ الجنَّة بدليلِ المقابلةِ، فلا يدخلُ فيها إلّا نعيمُ الجنَّةِ.

دَلالةُ العطْفِ في ﴿وَيَصُدُّونَ﴾:

جملةُ ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ معطوفةٌ على جملةِ ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾ وكلتاهما داخلتان في حيِّزِ صِلَة الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾، فبينَهما توسُّطٌ بين الكمالَين؛ لاتِّحادِهما في الخبريّةِ، فقد جمعَ الكفّارُ بين استحبابِهم الكفرَ وعزوفِهم عنِ الإيمان، وبين دعوةِ غيرِهم إلى الكفرِ ودفعِهم عنِ الإيمان، و"محاولةُ إرجاعِ المؤمنينَ إلى الكفرِ بإلقاءِ التَّشكيكِ عليهم"[1]. فهم لم يَكتفوا بكونِهم أشرارًا فاسدين حتى منعوا غيرَهم، وتعدَّى إليهم شرُّهم، ووقَفوا حائلًا بينهم وبين سلوكِهم سبيلَ الخيرِ والهُدى والفلاحِ ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ المستقيمِ المُؤدّي إلى النّهايةِ السّعيدةِ والنّجاةِ الأكيدةِ، وترتيبُ الصدِّ بعد الاستحبابِ دالٌّ على أنَّ صدَّهم هو نتيجةٌ فعليَّةٌ للاستحبابِ، فإنَّ من أحبَّ شيئًا وآثره على غيرِه، صدَّ نفسَه والآخرين عن مخالفتِه، و"من كان موصوفًا باستحباب الدّنيا فهو ضالٌّ، ومن منعَ الغيرَ من الوصولِ إلى سبيل اللّه ودينِه فهو مُضلٌّ، فالمرتبةُ الأولى إشارةٌ إلى كونِهم ضالّين، وهذه المرتبةُ الثّانيةُ وهي كونُهم صادّين عن سبيل اللّه إشارةً إلى كونِهم مُضلّين"[2].

من أحبَّ شيئًا صدَّ نفسَه والآخرين عن مُخالَفَتِه

بَلاغةُ الاسْتِعارةِ في الآية:

في قوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، تكشفُ مادّةُ

الصَّدُّ عن سَبيلِ اللّه تعالى يَشْملُ الوسائلَ المادّيّةَ والمَعنويَّةَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/26.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/61.

(الصّدّ) عن قوّة تعطيلِ الكافرين إقامةَ دينِ الله تعالى، وكأنَّهم أقاموا حائطًا صادًّا مَتينًا ليس منَ المُمكن هدْمُه وتَخطّيه؛ ففي مادّة (الصّد) تصويرٌ لُغويٌّ مجرَّدٌ منَ التّصويرِ البيانيِّ، وتعبيرٌ لُغويّ كاشفٌ عنِ استقوائِهم على تعطيلِ دينِ الله تعالى، وعن جسارتِهم على عبادِ الله جلَّ في عُلاه، وهذا ضلالٌ ما بعدَه ضلالٌ؛ ولهذا خُتمتِ الآية بِوَصْمِهم بالضّلالِ البعيدِ.

ففي استعمالِ مُفردةِ الصَّدِّ تشبيهُ منْعِ النّاسِ من دخول الإسلام بمن يصدُّ الآخرين عنِ الطريق، فهي استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، ويُرشِّحُ ذلك كونُ الصَّدِّ عن سبيل الله تعالى، فهم يَمنعون النّاسَ من دخول سبيلِ الله تعالى، أو يمنعون أنفسَهم، وبلاغةُ الاستعارةِ في كونِ الصَّدِّ أقوى من مجرَّد المنْعِ؛ لأنَّه يشملُ الصَّدَّ المادّيَّ والمعنويَّ بالوسائل كلِّها.

نُكتةُ الفعلِ المضارعِ في ﴿وَيَصُدُّونَ﴾:

المُـؤمـنُ أوْلَى بالاسْتِمرارِ على الـدَّعْـوةِ إلـى سَبيلِ الله تعالى

عُبِّرَ بالفعل المضارعِ في قوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لبيانِ أنَّ صدَّ الكافرين عن دين الله تعالى مستمرٌّ متجدِّدٌ في حركاتِهم وأفعالِهم وأقوالِهم ووِجدانِهم، لا يَفتُرون عن ذلك، ولا تبردُ دماؤهم عنِ الصَّدِّ في كلِّ محفلٍ ومكانٍ، وهي إشارةٌ إلى المؤمنين إلى أنَّهمُ الأحقّاءُ بهذا السُّلوك الدّائم المقابلِ للصَّدِّ، وهو الدَّعوةُ إلى سبيل الله تعالى في كلِّ مكانٍ وزمانٍ.

سِرُّ اسْتِعمالِ لفْظِ ﴿سَبِيلِ﴾:

سَـبـيـلُ الـلـه يَـدخـلُ فيه فرعيّاتُ الدّين وأصولُه

استعمالُ سبيل الله في الآيةِ هو استعمالٌ مَجازيٌّ في الأقوالِ والأدلَّةِ الموصِّلةِ إلى الدّينِ الحقِّ[1]، والسَّبيلُ تُستعملُ في المعاني المادّيَّةِ والمعنويّةِ، وهنا قد استُعمل السَّبيلُ دونَ الصِّراط كما في الآيةِ السّابقة، وسرُّ ذلك أنَّ الصِّراط يُستعملُ في الطّريق الطّويلِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/26.

الواضحِ، وهو الإسلامُ، أمّا هنا فالمقصودُ بالسّبيلِ أيُّ سبيلٍ موصِلٍ إلى الإسلام، فيُرادُ به السُّبُلُ الفرعيَّةُ والصّراطُ المستقيمُ، ونكتةُ ذلك بيانُ أنَّ من صدَّ عن دين الله تعالى بأدنى صدٍّ فداخلٌ في الذَّمِّ، ولو قال: (ويصُدّون عن صراط الله) لما دخل في الذَّمِّ إلّا الصّادُّ عن الإسلام كلِّه.

دَلالةُ الإضافةِ في ﴿سَبِيلِ ٱللَّـهِ﴾:

تركيبُ (سبيل الله) سائرٌ في الأذْهانِ كَسَيْرِ الحَياةِ في الأبدانِ

ذَكرتِ الآيةُ السّابقةُ أوصافًا أخرى للفْظِ الجلالةِ، فلم تقتصرْ على (صراط الله) وفي قوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ اقتُصرَ على الاسْمِ الجليلِ، وسِرُّ "الاقتصارِ على الإضافة إلى الاسمِ الجليلِ المُنطَوي على كلّ وصْفٍ جميلٍ لِرَوْمِ الاختصار"[1]، ولجعْلِ هذا التَّركيبِ ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ سائرًا في الأذهانِ لِما يتعلَّقُ بهذا الدّين القويم الذي ارتضاه الله لعبادِه.

دَلالةُ العطْفِ وترتيبِه في ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾:

أغْتَى الكُفْرِ الزَّعْمُ بأنَّ سبيلَ الله ناكبةٌ عنِ الحَقِّ

عُطفت هذه الجملةُ ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ على الجملتَين اللّتين قبلها لتدخلَ ثلاثتُها في حَيِّزِ صلةِ الموصول، فبين الثّلاثِ توسّطٌ بين الكمالَين؛ لاتّحادها كلِّها في الخبرية مع توفّرِ الجامعِ، وهي جملةٌ كاشفةٌ عن سوءِ القصْدِ وفسادِ النّيّةِ، ومقرّرةٌ يقظةَ القوم الكافرين وتعمُّدَهم تخريبَ دينِ النّاس، وصرفَهم عن ربّهم ﷻ، ووضْعَهم على طريق مُعْوَجٍّ لا يُؤدّي بهم إلى خيرٍ قط، بل يَطلبون الزَّيْغَ والاعوجاجَ لتكونَ في هذه السَّبيلِ، ثم بعد ذلك يَزعمون أنَّها "سبيلٌ ناكبةٌ عنِ الحقّ، غيرُ مُستويةٍ"[2]، وذلك بسَعْيِهم "في إلقاء الشّكوكِ والشّبهاتِ في المذهب الحقِّ ويحاولُ تقبيحَ صفتِه بكلِّ ما يقدرُ عليه منَ الحيلِ، وهذا هو النّهايةُ في الضّلال والإضلالِ، وإليه الإشارةُ بقوله تعالى: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾"[3].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/31.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/538.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/61.

سِرُّ اسْتِعمالِ ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾:

معنَى البَغي حاضرٌ باللّفظِ والسّياقِ

مُفردةُ (البغي) مادّتُها ثريّةُ الدّلالاتِ المَقيتةِ، التي يتحلَّى بها هؤلاء الكفّارُ، فهي تَنِمُّ عمّا يتَّصِفون به من قبائحَ تَحتملُها هذه المادّةُ اللّغويّةُ، من ذلك أنّها تصِمُهم بالفجور، والظّلم، والاستطالةِ، والإفراطِ، والتَّعدّي، ومجاوزةِ الحدّ، والتَّرامي إلى الفساد ... إلى آخر تلك الفظائعِ المُتحقّقةِ في هؤلاء الكفّارِ الذين يَستحبّون الكفرَ على الإيمان، فجمعت هذه المفردةُ تلك المعانيَ، وأشارت إلى أنَّ ابتغاءَهم الذي فُسِّر بالطّلبِ والإرادةِ، أي: يَطلبونها عِوجًا، ويريدونها عِوجًا، هو بغيٌ حقيقيٌّ، فنبَّه على البغي باللَّفظِ والمعنى السّياقيِّ، وهذا من بديعِ التّركيبِ القرآنيِّ. جاء في نظم الدّرر: "﴿وَيَبْغُونَهَا﴾، أي: يَطلبون لها، حذفَ الجارَّ وأوصلَ الفعلَ تأكيدًا له"[1].

دَلالةُ صيغةِ المُضارعة في ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾:

الكفرُ نارٌ مُتجدّدةٌ مَطلبُه إطفاءُ نورِ الإيمانِ

عُبِّر بصيغةِ المضارعة في قوله تعالى: ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ لتتآزرَ مع المضارعة في الجُملتَين السابقتَين المعطوفِ عليهما ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾، ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ وذلك يومئُ إلى إصرارِهم المستمرِّ في بيانِ نشاطِهم في طلبِ التّخريب والإفسادِ، وتجديدِهم (الاستحبابَ، والصّدَّ، والبغيَ)، وعدمِ التّواني في شيء منها، فما أعجبَ همَّةَ الكافرين في دعم كفرِهم على باطلِه!.

بَلاغةُ التَّعبيرِ بـ ﴿عِوَجًا﴾:

استعمالُ العِوَجِ إشارةٌ إلى أنَّ الدّينَ مُستقيمٌ وهم يطلُبون اعْوِجاجَه

إيثارُ النَّظمِ الكريمِ مادّةَ (العِوَج) دليلٌ على بلوغ الكافرين في الضّلال إلى منتهاه، ذلك أنّ غايتَهم تحريفُ الدّين وتشويهُ الحقِّ، ووصْمُه بالاعوجاج، تبغيضًا للنّاسِ فيه؛ فيَجتنِبوه ويُعادوه، وهذا واضحٌ في مناهج الكفرِ على كلِّ المُستوياتِ الاجتماعيّةِ والفكريّةِ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 10/374.

والعلميّةِ والعقليّةِ والسّياسيّةِ في جميع الأزمان، وغايتُهم أن يعبَثوا في الدّين ليُخرجوه في قلوب النّاسِ وسلوكِهم عنِ استقامتِه، وذلك بنشْرِ ما يقدحُ في سبيل اللّه تعالى ودينِه القويمِ، فيَدْعون أوّلًا إلى تحريفِه، ثمّ يعودون ليتّهموه بالعِوج.

وصيغةُ (عِوَج) مصدرٌ؛ فكأنّهم يريدون ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ التي يَصدّون عنها قطعةً منَ الاعوجاج، بحيث لا يُرى فيها خيرٌ، ولا يبقى فيها عند النّاس استقامةٌ، ولو قيل (ويبغونها مُعْوَجَّة) فَلَرُبما فُهِمَ أنّهم يَبغون أيَّ اعْوجاج، وأنَّ أقلَّ اعْوجاجٍ في ظاهرِ دين اللّه تعالى يُسعدُهم ويَكفيهم ويكُفُّهم عنِ المزيد منَ التَّخريب والصّدِّ، وهذا غيرُ دقيقٍ؛ إذ لا يُشبعُ فجورَهم إلّا ما تفوحُ به صيغةُ المصدر للمبالغةِ، التي تقطع بِبُلوغ نياتهم في السّوء مبْلغًا لا مزيدَ عليه[1].

وتُشيرُ المفردةُ إلى أنَّ ابتغاءَ الكافرين العِوَجَ هو دليلُ الاستقامةِ التي أشار إليها السّياقُ في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾.

بَلاغةُ الفصْلِ في جُملةِ الفاصلةِ:

إيثارُ الدّنيا، والصَّدُّ عنِ الدّينِ، سبيلُ الكافِرين

قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ﴾ جملةُ الفاصلةِ المتَّسقةِ تمامَ الاتِّساق مع مضمون آيتِها، جاءت مفصولةً عمّا قبلها، إمّا لأنَّها خبرٌ عنِ الموصول، أو مستأنفةٌ وقعت جوابًا لسُؤالٍ مقدَّرٍ؛ إذ "وقعت معلّلةً لِما سبق من لُحوق الويل بهم؛ تأكيدًا لما أشْعرَ به بِناءُ الحُكم على الموصول، أي: أولئك الموصوفون بالقبائحِ المذكورةِ مِن استحباب الحياةِ الدّنيا على الآخرة، وصَدِّ النّاس عن سبيل اللّه المستقيمةِ، ووصْفِها بالاعوجاج وهي منه براءٌ في ضلال عن طريق الحقّ بعيدٍ بالغٍ في ذلك غايةَ الغايات القاصيةِ"[2].

فهي كلامُ اللّه تعالى وتوصيفُه حالتَهم، وحكمُه على هؤلاء

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/139.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/31.

الضّالين، الذين بلغ بهمُ الضّلالُ أنِ استجمعوا أقبحَ الأفعال، فاستحبّوا الحياةَ الدّنيا على الآخرة، وتفاقم ضلالُهم فصدّوا غيرَهم، ولم يكتَفوا بما اقترفوه من ظلمٍ لأنفسِهم وظلمٍ للعباد، حتى بالغوا في الفسادِ والإفسادِ فعقدوا النيّةَ على تعطيلِ شرْعِ اللّه تعالى، والعملِ على تشويهِه، وتركِه عند الناس قطعةً منَ العِوَج والاختلالِ.

نُكتةُ اسْتِعمالِ اسْمِ الإشارةِ للبعيدِ:

أقوَى الأخبارِ ما زاحـمَ المبتدأ في معناه ومَبْناه

آثرَ الذّكرُ الحكيمُ تعريفَ المُسنَد إليه في جملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ بَعِيدٖ﴾ باسْمِ الإشارةِ الموضوعِ للبعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، أي: (البُعداء البُغضاء)[1]؛ إبعادًا للقوم الكافرين عن ساحة الطُّهر، والتّطويحِ بهم بعيدًا في مجاهل الضّلالِ البعيدِ؛ حيث لن ينالوا من كتاب اللّه تعالى الذي تكفَّل سُبحانه بحفْظِه حيث يقول: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: 9]، ولن ينالوا من دينِ اللّه ﷺ؛ لأنَّه الدّينُ الحقُّ، الذي إن تركوه امتدَّ وإن حاربوه اشتدَّ، فاللّه تعالى يُقيّضُ له مَن يحفظونَه في أنفسهم، ويُفسِدون على الكافرين خُطَطهم أوّلًا بأوّل.

وما أجملَ أن يُردَّ الخبرُ على المبتدأ، فاسمُ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ اشتملَ على البُعدِ المعنويِّ، ووصْفُ الضّلالِ بالبعيدِ قام مقامَ التّأكيد على هذا المعنى، فهو خبرٌ يُزاحمُ المبتدأ في معناه ومبْناه.

بَلاغةُ اسْتِعمالِ حرْفِ الظَّرفيّةِ ﴿فِي﴾:

تَصْويرُ انْغِماسِ الـكـافـريـن في الضَّلال دالٌّ على ضياعِهم

دلَّ حرفُ الظّرفيَّةِ ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ بَعِيدٖ﴾ على أنَّ الكافرين قدِ انغمَسوا في الضَّلال، وغطّوا فيه غطًّا، وكأنَّ ضَلالَهم قد صار قاعًا آسِنًا ووَحْلًا عميقًا غرِقوا فيه، وضاعوا إلى غير نجاةٍ، وحُقَّ عليهم ذلك فقد استَجْمعوا أقبحَ أنواعِ الضَّلال

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/374.

في أنفسهم، وحضّوا عليه وحثّوا إليه غيرَهم، بنوايا السّوء المُدبَّرةِ، ومقاصدِ التّخريب المُؤصَّلةِ.

ففي استعمال هذا الحرفِ في هذه الآية تزاحمٌ للمعاني البيانيَّة، ففي "جَعْل الضَّلال ظرفًا ﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾ مجازٌ، كأنه قد أحاط بهم، وجلْبَبَهم بسواده، فَهُم منغمسون فيه إلى الأذقان، يتخبَّطون في متاهاته، ويتعسَّفون في ظلماته"(1)، وفيه مبالغةٌ فإنَّ جعلَ "الضّلال محيطًا بهم إحاطةَ الظّرفِ بما فيه ما لا يَخفَى من المبالغة"(2)، وهو دالٌّ "على تمكُّنِهم فيه تمكّنَ المظروفِ في الظّرف، وتصويرِ اشْتمال الضّلال عليهم اشتمالَ المُحيط على المُحاط وليكونَ كنايةً بالغةً في إثبات الوصْفِ أعني الضّلالَ على الأوجهِ"(3).

غرَضُ تَنكيرِ لفْظِ ﴿ضَلَٰلٍ﴾:

طَريقُ الضَّلالِ قُبْحٌ منكورٌ وبُعدٌ موزورٌ

تنكيرُ ﴿ضَلَٰلٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ يتناغمُ مع وصْفِه الضَّلالَ بكونه ضلالًا؛ فالمادّةُ اللّغويّةُ تعني المتاهةَ الخَربةَ التي يضلُّ فيها مَن بداخلِها، كما يضلُّ فيه ويغيبُ الضّالُّ، فيصيرُ نكرةً منكورًا؛ فمفردةُ ﴿ضَلَٰلٍ﴾ تتآزرُ مع تنكيره ونُكرانِه وإنكارِه وجميع اشتقاقات المُنكر التي يُضْفيها عليه تنكيرُه، ويَصبغُها به، كما أنَّ التَّنكيرَ أفادَ تحقيرَ الضَّلالِ، فهو ضلالٌ لا وجهةَ له ولا مقصدَ فهو أدنى أن يُطلبَ وأحقرُ أن يُبحثَ عنه.

سِرُّ وصْفِ لفْظِ ﴿ضَلَٰلٍ﴾ بالبعيدِ:

بُعدُ الضَّلالِ عنِ الحقِّ يوازي قُربَ الصّراطِ المستقيمِ منه

وُصِف ضلالُ الكافرين والمنافقين في الذكر الحكيم بأوصافٍ كثيرةٍ، مثل: ﴿مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: 164]، و﴿بَعِيدٍ﴾، و﴿كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾ [الملك: 9]، وأكثرُها ورودًا هو وصفُ الضّلال بالمبين؛ حيث ورد في أربعة وعشرين

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/143.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/31.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/176.

موضعًا، وذلك أنَّ كلَّ ضلالٍ واضحٌ مكشوفٌ مُبين عن نفسه، ثم وُصفَ الضّلالُ بالبعيد، وقد ورد في ستَّة مواضعَ، ثم وُصف الضّلالُ بالكبيرِ، ولم يردْ إلّا في موضع واحد من سورة تبارك، ووصْفُ الضّلالِ في سورة إبراهيم بالبعيد صريحٌ في أنَّ الضّالّين في هذين الموضعَين قد أبعدوا الشُّقَّة في الضّلالِ، وبالغوا في النّزعِ الآثم.

وإنَّ أقصى مراتبِ الضّلال هو الذي وصفَه اللّه تعالى في هذه المرتبة فهذه المرتبةُ في غاية البُعدِ عن طريقِ الحقِّ، فإنَّ شرطَ الضّدّين أن يكونا في غاية التّباعُد، مثل السّوادِ والبياضِ، فكذا هاهنا الضّلالُ الذي يكون واقعًا على هذا الوجه في البعدِ عنِ الصّراطِ المستقيم الذي هو أقربُ ما يكونُ للحقِّ؛ يكونُ في غاية البعدِ عنِ الحقِّ، فإنّه لا يُعقلُ ضلالٌ أقوى وأكملُ من هذا الضّلال[1]، وعليه فوصفُ البعدِ "مستفادٌ منَ البُعد المَسافي إلى تفاوُت ما بين الحقِّ والباطل، أو ما بين أهلِهما"[2]، أو ما بينهما وما بين أهلِهما معًا.

بَلاغةُ المجازِ في وصْفِ الـ ﴿ضَلَٰلٍ﴾:

إسنادُ البعدِ الى الضّلال مجازٌ عقليٌّ، وهو من إسنادِ البعدِ إلى سببِه؛ لأنَّ البعدَ في الحقيقة للضّالِّ؛ لأنَّه هو الذي يتباعدُ عنِ الطّريق فوُصِف به فِعلُه، كما تقول: جدَّ جدّه وداهية دهياء[3]، وهو عبارةٌ عن تعمّقِهم في غورِه، وصعوبةِ خروجهم منه[4]، ويجوزُ أن يكون تشبيهُ الضَّلال بالبعيد على طريق تشبيهِه بالطَّريقِ الشّاسعةِ التي يتعذّر رجوعُ سالكِها عنها، فهو ضلالٌ قويٌّ يعسُرُ إقلاعُ صاحبه عنه، فيكونُ فيه إشارةٌ إلى استبعادِ اهتداءِ أمثالِهم كقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾ [الشورى: 18][5].

مـن بـعُـدَ عـنِ الحقِّ في مَسيرِه بعُدَ عـنِ الحقِّ في مَصيرِه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/61.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/175.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/143.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/323.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/184.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الصدُّ والمنعُ:

"الصّدُّ: هو المنعُ عن قصْدِ الشّيء خاصّةً، ولهذا قال الله تعالى ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الأنفال: 34]، أي يمنعون النّاسَ عن قصْدِه، والمنعُ: يكون في ذلك، وغيره ألا ترى أنّه يقال: منعَ الحائطَ عنِ الميل، ولا يقال صدّه عنِ الميل؟ لأنَّ الحائطَ لا قصْدَ له، ويقولون: صدّني عن لقائك يريدُ عن قصْدِ لقائك وهذا بيّنٌ"[1]. ولمّا كان القصدُ في الآية مُحدّدًا في ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ اختيرَ لفظُ ﴿وَيَصُدُّونَ﴾.

المَنعُ عامٌّ، بينما الصَّدُّ فهو فيما فيه قصدُ الشَّيءِ خاصَّة

العِوجُ والميلُ:

العِوجُ: ميلٌ مضطربٌ قلَّ أو كثر، أمّا الميلُ: فيكون بعد استقامةٍ مثل قوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ [النساء: 27]، أو عن استعلاءٍ معنويٍّ مثل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء: 129]، أو ماديٍّ مثل قوله تعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [النساء: 102]. ولكوْنِ ابْتِغائِهم العوجَ لم يأتِ بعد استقامةٍ، بل كانَ ميلا مُضطربًا، وزيغًا، وزيغًا عن سلوك سواءِ السّبيل مُتجذّرًا فيهم؛ ناسبَ سياقُ الآية اختيارَ لفظِ ﴿عِوَجًا﴾ دون (ميلا).

العِوجُ اضطرابٌ قليلٌ أو كثيرٌ، والميلُ ما كان بعد استقامةٍ أو عن قوّةٍ

البعيدُ والعميقُ:

العميقُ ما يكونُ في جوفِ الأرضِ، أمّا البعيدُ فما يكون في جوفِها وما يكونُ في ظاهرِها، فالعمقُ: البُعْدُ إلى أسفلَ، سواءٌ أكان بئرًا أم واديًا[2]. ومن هنا اخْتيرَ (البعيد) وصْفًا للضّلال بوصْفِه طريقًا طويلةً، شاسعةً يتعذّر رجوعُ سالكِها عنها.

العُمْقُ ما يتَّجهُ إلى أسفلَ، والبعيدُ ما يتَّجهُ إلى مُساوٍ

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 311.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (عمق).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 24 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-21-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 24 : المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-21-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1718375 بتاريخ 2024/02/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»